مجـــال العبقرية

الاستاذ محمد خليفة التونسي

مجال العبقرية هو السريرة الإنسانية حيث أرادت الإصلاح، ومتى أرادته ...

فهو المجال الذي منه تبزغ وفيـــه تعمل، وعليه تعتمد في الإصلاح، وبه تناط معجزاتها الأدبية، فالعبقرية حين تتصدى لإصلاح البشر إنما تعمد إلى تغيير سرائرهم فتغير إحساسهم وتفكيرهم ونظرات بعضهم بعضا لبعض، ونحو الحياة عامة، والوجود بصورة أعم، فإذا أفرغت العبقرية قواها في السرائر الإنسانية التي تتصل بها غيرتها، فتغيرت طوعا لذلك حياتها الاجتماعية وكل ما فيها من نظم.

وبهذا المقياس وحده يقاس أثر العبقرية، وعلى هذا النحو ينبغي أن يمتحن إعجازها الأدبي، إذ أن مناط هذا الإعجاز ما في العبقرية من قوة دافعة إذا مست السرائر الانسانية جاشت فيها بواعث الحياة وبواعث الواجب وبواعث الشعور وبواعث التفكير وكل ما [illegible] في النية الإنسانية من قوى الوعي والحركة.

ومن طلب الإعجاز من العبقرية في غير هذا المجال فهو جاهل بمعنى الإعجاز، ومعنى العبقرية، ومعنى الحياة الانسانية، وحدود الطاقة البشرية ومكان الانسان في الوجود. وهو كمن لا يبحث عن الماء إلا في السراب، فإذا لم يظفر به — وما هو بظافر — كفر بالماء والسراب جميعا. ولو تدبر الأمر لعرف أنه هو الذي دفع بنفسه في مهاوي الضلال بسوء افتراضه ومنهجه وحكمه، ولو فطن إلى أنه يكلف الأشياء ضد طباعها لما زاغ رأيه وما طغى.

ومن هنا يتبين الفرق بين منهاج العباقرة ومنهاج غيرهم في إصلاح البشر.

فالعبقري يلجأ أولا إلى إصلاح السرائر الانسانية، فإذا صلحت صلح بصلاحها ما يشكو منه المجتمع من أدواء، أو هان على الأقل إصلاح هذه الأدواء أو تخفيف وقعها على النفوس.

وغير العبقري يلجأ إلى إصلاح ما يحيط بالناس، ويحاول أن يوجد توازنا بين القوى المختلفة في المجتمع حتى لا تثقل بعض جوانبه ويطيش بعضها فيتزعزع بنيانه وتنحل ضوابطه.

العبقري يبدأ الاصلاح من الداخل فيندفع إلى الخارج، وغير العبقري يبدأ الإصلاح من الخارج ليحاول أن يجد له طريقا إلى الداخل وقد يصل إلى السريرة أو لا يصل.

ومن ثم كان إصلاح العبقري أشبه بالطفرة المفاجئة، وإصلاح غيره أشبه بالدبيب الهادىء الوئيد. وكأن المجتمع يخلق حيث نبغ العبقري خلقا جديدا، وكأنه على يد غيره يرمم ويقوم بعدة عمليات جراحية خفيفة بطيئة على التوالي طالما هو يحيا، وطالما

وليس تعدد طرق الاخراج والتأليف في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن وترددها بين الواقعية والرمزية إلا دليل قلق رجال المسرح على المسرحية الحوارية من ظهور الأوبرا والباليه والسينما: أما الأولى فقد رأت أن تقترن الموسيقى بالحوار حتى غطت الموسيقى على الحوار وكادت أن تقضي عليه، حتى جاءت الباليه التي لم تر في الموسيقي علاجا لطغيان الحوار فألغته الغاء تاما واستغنت عنه بالحركة المصورة التي اتخذتها وسيلتها في الأداء أما السينما فقد أرادت أن تقف في مفرق الطريق فجمعت بين عناصر هذه الفنون داخل الصور المعبرة التي تقدمها.

هذا ما جره تمسك المسرح بالحوار والمسرحيات الحوارية المكتوبة التي يخلقها له أديب غير ممثل ويخرجها مخرج يشرف على المسرح من بعد ولا يضع يديه في العمل.

وإذا بقي المسرح على هذا الحال فلن يمر نصف قرن عليه حتى يكون قد استهلك كل امكانياته وملّه الناس ولم يعد أمامه إلا أن يمسح الطريق لفن جديد لا علاقة له به، أو أن يسير في الطريق الطبيعي الذي رسمناه له. وما زال علاج المسرح في المسرح نفسه وفي الرجال الذين يعملون به

يوسف الخطاب

بنيته محتاجة إلى هذه العمليات ، وقادرة على تحملها ، ثم يكتب له السلامة من أخطارها .

المبقرى دائما صاحب رسالة ، وعمله تبليغها إلى الناس ، وهو لا يبلغها حتى يكون مثلا حيا مجسدا ، وحتى يكون مثلا مغريا ليحمل الناس على التأسى به فيها ، وهو لن يثرى النـاس بتقليده والايمان به حتى تكون شخصيته محببة جذابة ، وسيرته رضية وممثلة لرسالته ، فيجرهم بجمال شخصيته وسيرته على الاعجاب به والاطمئنان إليه ، ثم التسليم برسالته؛ ولن يتاح ذلك ضرورة إلا بأن يصحبهم ويصحبوه .

فالصـلة الشخصية بين المبقرى ومن حوله هى الوصل الجيد السريع الذى تنتقل خلاله شخصيته بكل ما حفلت ، ومبادئه كأبسط وأظهر ما تكون فى تسربها من سريرته إلى سرائرهم ، ولا صلة غير الصلة الشخصية التى تتهيأ فيها الألفة ويتجمع الشتات وتعرض الأمور بسيطة بارزة قادرة على نقل صـورته ومبادئه — منه إليهم ، وبغيرها يتعذر أو يتعسر التأثير .

وهم لا ينتظرون منه آية على صدق رسالته وكرمها — سواء وعوا ذلك أم لم يعوه — إلا أن يكون هو مثلا محببا إلى نفوسهم فى تصويرها وتوضيحها لهم ، ولا آية تقنع المستعدين للاقتناع بصدق رسالته وكرمها إلا تجسدها فاتنة محببة لهم فى شخصـه وسيرته .

وعلى هـذا النحو الذى انتقلت به الرسالة من سريرته الى سرائر أصحابه تنتقل من سرائرهم إلى سرائر من وراءهم فى الزمان والمكان ، وبأشخاصهم وسيرتهم الممثلة لهذه الرسالة كما تظهر خلال صلاتهم الشخصية المباشرة بالناس يستحوذون على إعجابهم وثقتهم وإيمانهم، فالعملة التى يتعامل بها الناس فى حياتهم هى الأشخاص والأعمال الصالحة المنظورة التى تمثل المبادىء والأفكار الصالحة فى صورة حسية جذابة ، وليست هى المبادىء والأفكار المجردة مهما تكن صالحة ، ومن هنا تظهر خطورة الصحبة التى تتسلط فيها شخصية على شخصية ، ولا سيما الشخصية المبقرية التى هى بحكم طبيعتها طاغية غامرة .

نعم ، ليست الصلة الشخصية بين المبقرى وغيره صلة ذهن بذهن ، ولا استمتاع عين بمنظر انسان عجيب، بل امتزاج تتسلط فيه شخصية مغناطيسية بكل ما فيها من قوى طاغية على شخصية قابلة للانجذاب إليها ، متفتحة لتقبل ما تفيض به عليها .

هنا فيض شخصية فى شخصية لا يسهل حصر حدوده ولا طرقه ، لانقل معلومات من ذهن يعلمها إلى ذهن يجهلها ، بل فيه تشبع الشخصية التابعة بالشخصية المتبوعة الى درجـة الامتلاء ، وذوبان عناصرها فيها حتى تستحيل شخصية أخرى تصدر عنها أعمالها وأقوالها كما يصدر العسل عن النحلة ، وتسير فى حياتها على هدى هـــذه الرسالة كأنها تهتدى بوحى غرائزها الفطرية دون تفكير ولا تردد ولا اختيار .

فإذا تحدثت الشخصية التابعة سمعت منها حديث النوم مغناطيسيا تحت تأثير منومه ، وتظهر كلماتها مطبوعة بطابع الرسالة التى تلقتها ، ولو لم يكن الموضوع الذى تتحدث به من الموضوعات التى تعرضت لها الرسالة ببيان . ومن الأمثلة التى توضح لنا ذلك أحاديث حوارى المسيح برسالته من بعده الى الناس ، وما كان هؤلاء الحواريون الا طائفة من صيادى السمك وأشباههم لا يزيدون فى ثقافتهم على العوام، ولكنهم ثبتوا فى الجدل الكلامى لأساطين كهنة اليهود وأحبارهم الذين كانوا فقهوا حق الفقه صفوة الثقافات الدينية والعلمية والفلسفية التى كانت معروفة فى عهدهم ، وانتصروا عليهم حتى فى تفسير الشريعة الموسوية التى هم كهنتها وأحبارها . وكانوا اذا خطبوا أو تحدثوا — وهم العوام — تطفوا بالبيان الساحر الذى يزلزل القلوب ويهز العقول فلا تملك حيال بلاغته العارمة مايدفعها ، فإما أن تؤمن بهاو إما أن تنحرف عن طريق سيلها الغامر .

وكانوا اذا تنبهوا إلى أن ما يقولون هو فوق مستوى افقهم تعجبوا من أنفسهم ودهشوا كيف يأتون بمثله وهم العوام، وتأولوا ذلك بأنه من آثار تجلى الروح القدس عليهم وامتلائهم به . ونحن لا نملك إلا أن نعجب كما عجبوا وندهش كما دهشوا كيف يأتون بما أتوا به مما لا يحسن مثله فحول البلغاء الذين قضوا سنين عاكفين يتدربون على تجويد القول والتفنن فيه. هذا إلى ما يمتاز به كلام أولئك الحواريين من بساطة معجزة فى التفكير والتعبير . ونحن أخيرا لا نملك إلا أن نسجل هذه الظاهرة ونصفها ، فإذا

حاولنا تعليلها « بعبقرية الإيمان » فى تلك السرائر التى « تشبعت وامتلأت وذابت عناصرها فى فيض عبقرية المسيح » لم يمكن هذا التعليل بأقوى من تعليلهم هذه الظاهرة بتجلى الروح القدس عليهم وامتلاء نفوسهم به ، والمسألة لا تعدو حد الوصف .

ومن هذه الأمثلة ما نقل عن بعض صحابة النبى الأقربين من أقوال وأعمال وسير ، وفيهم التاجر الصغير والحداد والجزار وبارى النبال والبا[illegible] ، فمن [illegible] نهضوا بأعباء الفقه والحكم والنصيحة للخلفاء وغيرهم ورتق الفتوق التى انفتحت عليهم من أقطارها ، فشرعوا وحكموا ونصحوا وأصلحوا كأتم ما يستطيعه من قضوا أعمارهم فى دراسة الشرائع وسياسة الممالك والمشورة على الملوك والرعية ، والاحاطة بتواريخ الأمم والوسائل الناجمة التى عالج بها أبطال الساســـة المشكلات أيام السلام والهزاهز . ولقد بلغوا فى هذه الأمور حدا يندر أن يطاول حتى كثير من طائفة السبيد المسخرين المستضعفين فيهم قد كان لكل منهم مشاركة فى هذه العظمة يعز أن تظفر بمثله بين أبطال التاريخ فى أى مكان أو زمان خلال قرون .

ومن العجب المعجز أن تظفر بكل هؤلاء وبجم منهم فى فترة واحدة على يد رجل واحد . فكيف استطاع محمد فى حقله الضيق فى سنوات معدودات أن ينبت هذه المئات من أشجار البطولة التى تنوعت سيقانها وفروعها وأوراقها وأزهارها وثمارها كأوسع ما يكون التنوع ، وهى تقوم فى تربة واحدة وتسقى بماء واحد . ولا يخفف من عجبنا شيئا أن هذا الرجل الذى تخرجوا به نبى ، وأن هذا النبى محمد ، ما لم نكن ممن يعشى أبصارهم تلألؤ الكلمات فيقفون عند حدودها ولا ينفذون إلى العوالم الفساح المترامیات وراءها ، ولو فعلنا ذلك لم نعرف الدرس الأول الذى تعلمنا إياه صحبة البداوة ، وهذا الدرس الأول الذى يمثل « أبجدية العبقرية » هو عدم الوقوف عند الكلمات التى تواضع عليها الناس ولو كانوا من الحكمة فى أرفع مكان .

ومن أهم ما يلفت النظر فيهم قولا وعملا وسيرة ظاهرة « الاجتهاد » مع أنهم متأثرون أقوى الأثر وأعمقه بشخصية النبى ومن العجيب أننا لا نجد تعليلا لهذه الظاهرة إلا ما نستدركه بعد ملاحظتنا هذه الظاهرة ، وهذا التعليل هو أنهم متأثرون أقوى الأثر وأعمقه بشخصية النبى ، فتحت هـذا التأثر القوى العميق يقولون ويعملون ويسيرون فى حياتهم كأنهم « أنبياء صغار » وكأن « الاجتهاد » الذى يصاحب « النبوة » الكبيرة « غريزة » من أقوى غرائزهم الفطرية غرزها فيهم النبى لتصاحبهم وتوجههم غريزيا ، وتلهمهم إلهاما ما يقولون وما يعملون وما يسيرون كما ينبغى أن تكون الأقوال والعمل والسيرة « الشخصية » « النبى الصغير » فى غيبة « النبى الكريم » . فهم ينظرون إلى أنفسهم وما حولهم ومن حولهم نظرة فيها من الأصالة والاستقلال والحرية ما لا يتوفر إلا لعظماء « المجتهدين » .

وهؤلاء لا يظهرون كأنهم « أنبياء صغار » إلا عند مقابلتهم « بالنبى الكبير » وإلا فإنهم إلى جانب كثير غيره من المشهود لهم بالإلهام يظهرون كأنهم قمم لا تطاول .

إن الوجود بكل ما فيه ليبدو لهؤلاء — كما يبدو لكل عبقرى — طازجا غضا كأنه لم يخرج من يد الله الا فى اللحظة التى رآه فيها . إنه ليبدو فى عينيه وجودا « جديدا » لم يكشفه أحد من قبله ، ولم يبد فيـــه رأيه ، ولم يسم شيئا فيه باسمه . ورأية ذلك أن وعيه لا يقف بداهة عند حد الأسماء التى سماه الناس وسموا محتوياته بها ، ولا يعترف بداهة بالمواضعات التى تواضعوا عليها فى معرفته ، ولا بالأحكام التى قضوا بها فى مشكلاته مهما يكن سداد هذه الأحكام ، ومهما تكن قداستها ، فكل أمر تقع عليه عيناه قضية لم تحقق ، ولم يصدر عليها حكم ، ولا تزال تنتظر منه نظره وحكمه ، ولا بد أن يكون نظره فيها ثم حكمه عليها جديدا مستقلا أصيلا حرا جريئا لا يأبه كيف اعتبر الناس قبله هذا الأمر مهما كانوا من الحكمة والقداسة .

ومن بناء هؤلاء وتعودهم على النظر المستقل فيما هو من عميهم المكلفين به نرى لهم نظرات أريبة أصيلة مستقلة حتى فيما جاوز عملهم كما نرى استغراق نشاطهم فى تأمل هـذا الوجود لا سيما البشرية داهلين عن مآربهم المعيشية؛ فهذا الوجود ولا سيما البشرية — وهو الذى تبدو مشكلاته لأبصار العاديين أمورا مفروغا منها — يبدو لأبصار هؤلاء كأن مشكلاته لم يتناول شيء منها بالدرس ، ولم يقل فى شيء منها كلمة واحدة ، بل لم يسم شيء